نكبة الفلاح

Le Malheur du Fellâh.

قصيدة من ابدع قصائد فيلسوف الشعراء وشاعر الفلاسفة الاستاذ الكبير جميل صدقي الزهاوي وقد صور فيها افصح تصوير نكبة الفلاح العراقي ، تلك النكبة التي نزلت به في هذه السنة بفيضان الفرات وقد استدعا في حفلة تمثيل رواية « الوطن » التي قامت بها فرقة السيدة فاطمة رشدي في ليل ٥ حزيران سنة ١٩٢٩ لاسعاف المزروعي الفيضان .

ـ ١ ـ

قد طغى يطفح الفرات وعيا ... يملأ الانفس الجريئة رعبا
ساعة ثم طبق الارض ماء ... فكأن الاتي قد جاء وثبا
ان ذاك الذي عهدناه نهرا ... ضيقا امسى اليوم كالبحر رحبا
غمر الجانبين منه وانحى ... يتسامى الى التلاع فاربى
اغرق الزرع والمساكن والشـ ... ـاء مطاقيل والبساتين غلبا
ان يوما انحى الفرات على الفلاح فيه يشله كان صعبا
لم يكن هكذا يشد عليه ... مستبدا لو كان يملك قلبا
كذبتنا الحياة في كل شيء ... ولعل الامال اكثر كذبا

ـ ٢ ـ

جاء فيضان بادي الازباد ... عابثا بالاسداد والارصاد
واذا كان السيل قد صب يجتـ ... ـاح فماذا مناعة الاسداد
ان من كان في الجبلة حرا ... كاسرا للاغلال والاقياد
ولقد مدته على ما اتاه ... كثرة الثلوج في الاطواد
دهم السيل آمنين فريع ... القوم يستصرخون للانجاد
هبت الامهات في الذعر ليلا ... يتعثرن فيه بالاولاد
يا لها نكبة المت بناس ... فاضاموا ماعندهم من رشاد

كابدوا الجوع بعد ذاك حتى نال منهم ، وفت في الاعضاد
فوجوه تكلحت وعيون غضلات غارت لطول السهاد
هكذا الحادثات تبدو وتخفى في صدام لا زال بالابادد

—٣—

قد تمادى الفرات في طغيانه وابى إلا قسوة في اقتناله
فاض حتى حسبته وهو يسطو ملكا يستبد في سلطانه
غمر القاع ثم عب فأمسى يعتدي مزبدا على كثبانه
اتراه مصارعا يتحدى ام تراه قد هاج من اشجانه
ذاهبا بالشياه يجرفها جرفا وبالزرع وهو في ريعانه
جاء كالنمر الوحش يبلع ناسا رضعوا ما ادر من لبانه
كم فتاة اودى بها في صباها وفتى قد ارداه في عنفوانه
انه فيا اكتساحه الزرع يعثو سل روح الفلاح من جثمانه
لعظيم طوفانه وعظيم ما تلقى الفلاح من طوفانه
ولقد كان قبل ذلك يأتي حاملا للسلام في ارداني

—٤—

قنطما بالفلاح يقسو الفرات وله كانت منه تأتي الحياة
اذهب الزرع والمراعي جميعا فجاعت ابناؤه والبنات
قد اصابته في النهاية منه نكبات وراءها نكبات
امهات لهن تدعو صغار وصغار تدعوهم الامهات
ولقد اصبحوا جميعا بلا مأوى وباتوا وهم جياع عراة
ذهب الزرع عند ادراكه والبيت ثم الشياه والبقرات
كل هذا في ليلة عصفت فيها السوافي واشتدت الظلمات
رب قوم باتوا جميعا فلما اصبحوا القوا انهم اشتات
انما هذه الطبيعة قيد والنواميس كلها حلقات

—٥—

القرى قد تهدمت والبيوت ثم مز المأوى وعز القوت

فتيات يعولن خوف المنايا وبنايا تطوف وهي سكوت
بالاتي الفلاح فوحي ليلا فهو في ظهر ربوة مبهوت
ينظر السيل وهو ضخم مخيف يتنزى كأنه عفريت
اهل ذاهب وجهد مضاع وشياه غرقى وشمل شتيت
ليت شعري هل الطبيعة غضبى قد قضت في ابنائها ان يموتوا
اين اين المفر والقدر القـــلاب قد سل سيفه الاصليت
انما في السماء قد رفعت والارض فيه وحـــده الملكوت

—٦—

جـلل ما الم بالفـلاح جاءه السيل بغتة وهو طاعي
انه في ليـل من الهم داج قد خلا صبحه من الاوضاح
من حشاشاته رحى الهم نالت افنى بالهم من رحى ملحاح
ظل في بهرة الشقاء مقيما ماله عنها ساعة من براح
افسدت عيشه صروف الليالي هل لما افسدته من اصلاح
كلما ازداد الفقر في بلدقلت من اليـأس قيمة الارواح
اي نفع لبائس من حياة قد خلت حقبة من الافراح
هل لهذا الليل البهيم انتهاء فارى النور فائضا في الصباح

—٧—

ارأيت يا سمـاء بالمفجوع بضراعاته وتلك الدموع
ارحمي ادمعـا له قـد تحلـبن تؤاما من قلبه المصدوع
بائس ينخز الاسى قلبه كل ليـاليـه ليـلة الملسوع
مرسل عند غبسة الليل منه شهقات الى الفضاء الوسيع
وله صرخة اذا النفس جاشت ترتقي في الليل بعد هزيع
انظري هذه الجموع فهل من نضرة في وجوه هذي الجموع
كلهم قد اضاع زرعا وضرعا ليس فيهم من لم يكن بمضيع
قد خلا الروض من خزامى ورند فكأن الربيع غير ربيع

ـ٨ـ

تسعد الارض بالرجال وتشقى ... وباعمالهم تفور وترقى
اثر المرء بعده ذو بقاء ... غير ان المآثر الغر ابقى
ومن الناس من يرى الحمق حذقا ... ويرى الحذق بعد ذلك حمقا
اي رشد ترجوه في ثلة قد ... تخذت باطلا من الامر حقا
كل يوم يسدد الدهر سهما ... غير ان الانسان لا يتوقى
قد شقينا بما جبينا فسحقا ... لحياة نشقى بها ثم سحقا
واري مهجرين في البر عطشى ... واري واغلين في اليم غرقى
ما اطقنا احتمال ما قد لقينا ... فعسى ان نطيق ما سوف نلقى
ليس عيب عن العواتق يرمى ... مثل عيب على العواتق يلقى
اغتنم صفوها فانك ... يوم وشيك يجيء تشرب رنقا
من تروى ان الفناء محال ... لا يرى بين الحي والميت فرقا
غير ان الحياة محبوبة لي ... فودي اني اعيش واتقى
واقد يعقب النعيم عذابا ... رب مر من السعادة يشقى

ـ٩ـ

يرتجي الشدائد السود فيصل ... انه راحم عليه المعول
ملك جامع لغر السجايا ... فهو فيهن آخر وهو اول
رأسه للسلام بالتاج والتا ... ج جديرا برأسه قد تكلل
ما اصاب الفرات غر بنيه ... ساء فهو اليوم بالهم مثقل
قد طغى فوق كل ما تتظنى ... وطما فوق كل ما تتخيل
طرد الناس في المساكن يسطو مثلما طارد الفريسة اجدل

جميل صدقي الزهاوي